في جامعة تل ـ أبيب، اذ شمل تقريره، المنشور في آذار (مارس) الماضي، ستة خيارات، تتراوح بين استمرار الوضع الراهن واقامة دولة فلسطينية. وأوصى التقرير بالتفاوض المباشر مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتيسير السبل لقيام الدولة الفلسطينية، بعد فترة حكم ذاتي تمتد بين عشرة أعوام وخمسة عشر عاماً.

وأكدت الانتفاضة، فيما أبدعت في التخطيط والتنفيذ، ما أثبتته حرب العام ١٩٧٣، وهو امكان أخذ العدو الاسرائيلي بغتة. واذا كانت اسرائيل زعمت انها تلقّت درساً من تلك الحرب، واحتاطت لاحتمالات المفاجأة بأنواعها العدّة، فقد وقعت، مرة أخرى، في مصيدة التقصير الاستخباراتي. ومن عجب ان لا تكتشف اسرائيل احتمال انتفاضة الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة، على شكل هبّة رجل واحد. ومن عجب، أيضاً، ان لا يعرف جواسيسها وعيونها وأجهزة مخابراتها، المبثوثة في كل مكان من تلك الارض، نيّات شعب بكامله. والأعجب من هذا وذاك ان لا تستطيع مراكز البحوث والدراسات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والاجتماعية في اسرائيل، وهي مراكز غنيّة بالعلماء والمتخصصين والوسائل الحديثة، التنبؤ باحتمال حدوث ما حدث. أسئلة كثيرة تضع اشارات استفهام على قدرات أجهزة المخابرات الاسرائيلية، وهي قدرات تضخّمها الادعاءات والأوهام وأساطير أجهزة الاعلام.

لقد أخرجت الانتفاضة الجيش الاسرائيلي من اطار مذهبه العسكري الذي عاش عليه أكثر من أربعين عاماً، ورسّخ أسسه ومفاهيمه، وطبّق مبادئه في جميع الحروب والمعارك التي خاضها.

ومن أسس ذلك المذهب ان لا يتعرّض الجيش الاسرائيلي لحرب طويلة الأمد، وان لا يقبل الاستدراج الى حرب استنزاف، وان يسعى، دائماً، الى ان يفرض، هو، المعركة على خصمه، فيحدّد الزمان ويختار المكان، ويقتصد بقواه، فلا يشتّتها، ويجمعها ويركزها ولا يفرّقها على جبهات ساخنة ومتحركة عدة في آن.

وفي حين لم يكن يعرف الجيش الاسرائيلي مذهباً غير هذا الذي جرّبه واقتنع بجدواه، وأقام عليه برامج تدريبه وخططه الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية، جاءت الانتفاضة لتستدرج الجيش الاسرائيلي الى معركة هي في أصلها «لا معركة»، والى ميدان يصعب التخطيط للقتال فيه، والى استنزاف للقوى والجهود، بطيء، دائم، لا يهدأ، عمره أكثر من خمسمئة يوم حتى الآن. وهو استنزاف مجرّد من القدرة على القتال، لم يعرفه هذا الجيش من قبل. وقد جُرّ اليه دون ان يختار أمكنة وقائعه ولا أزمنتها، وانما فرضت عليه فرضاً.

لقد بنت اسرائيل خططها القتالية على أساس تكرار الحروب العربية ـ الاسرائيلية طوال العقود الأربعة الماضية. ولم تكن ثورة الأرض المحتلة في حسبان تلك الخطط، ولم تكن تنزل في المكانة الأولى منها. فهي، في نظر المؤسسة العسكرية الاسرائيلية، ليست سوى تحدّيات محتملة، ثانوية الطابع، متفرقة جغرافياً، ضعيفة التكوين البشري، يمكن احتواؤها بسهولة.

وحينما نشبت الانتفاضة، واجهتها اسرائيل بهذا المفهوم الذي ساد في الخطط العملياتية. وما ان أفصحت الانتفاضة عن مدى عمقها وانتشارها وفدائها، حتى غيّرت المؤسسة العسكرية مفهومها شيئاً فشيئاً، وأصبحت تواجه تهديداً غير عسكري بالوسائل العسكرية التقليدية. وهذا هو المأزق الاستراتيجي الاسرائيلي.

ومن مظاهر هذا المأزق، ان الانتفاضة أدّت الى تقليص القدرات العملياتية وفعالية الردع